الفصل الأول

علم النفس وفن التعليم

فى غمار نشاطنا العام والتيار المنبثق مما يعتمل فى صدورنا من مثل عليا واهتمامات مشتركة — التى يستطيع أن يتبينها كل باحث عن الحقيقة فى كل ما يحيط به من مناشط الحياة الأمريكية — يبدو أنه لا توجد ناحية مفعمة بالأمل وزاخرة بالرجاء أكثر من ذلك الاختمار والمخاض اللذين استمرا أكثر من اثنى عشر عاما يعتملان فى صدور المعلمين ويعبران عن آلامهم وآمالهم .

ففى كل مجال من ميادين أعمالهم ووظائفهم التربوية ، نلمس فيهم روحا وثابة هادفة للبحث والتنقيب عن لب ما يشغل بالهم فى مهنة التربية ، ويثير اهتماماتهم بآفاقها العليا فى أسمى مراتبها .

إن تجديد الأمم وبعثها وإقالتها من عثراتها يبدأ دائما من القمة على يد قادة الفكر فيها الذين يتسمون بالحصافة وإحكام التدبير . ثم تنتشر هذه الاشعاعات وما يصاحبها من وعى وسعى ، تدريجيا وببطء ، الى الخارج والى أسفل .

إن مصير هذه الأمة بأيدى معلميها ، وآية ذلك هو هذا التحمس والغيرة والجد التى تتجلى اليوم فى محاولاتهم الموصولة لتنوير وتقوية وتدعيم أنفسهم . أليس هذا أكبر دليل على احتمالات التقدم والنهوض التى تنتظرنا فى كل اتجاهات مثلنا العليا ؟

ان نظام التعليم القائم فى الولايات المتحدة الأمريكية قد يكون بصفة عامة وعلى وجه الاجمال أحسن نظام وأفضل تنظيم موجود فى أى بلد آخر من بلاد العالم .

فنظم التعليم فى الولايات المختلفة ، تتصف بالتنوع والمرونة ، وتتيح الفرصة للتجريب ، وتشحذ روح المنافسة . وهى ظاهرة لا توجد على هذا النطاق الواسع فى أى مكان آخر .

واستقلال كثير من الكليات والجامعات التى يسودها جو من الأخذ والعطاء والنقاش الحر بين الطلاب والمعلمين ، وشيوع روح المباراة والعلاقات العضوية السعيدة فى مدارس المرحلة الأولى ...

ورسوخ تقاليد للتعليم فى هذه المؤسسات التربوية التى انبثقت وتطورت من طريقة المحفوظات الأمريكية القديمة التى تلافت نظام الالقاء البحت السائد فى ألمانيا وسكوتلاندا التى تعطى أقل اهتمام لاعتبار شخصية الطالب كفرد ، هذا من جهة ، وفى الوقت نفسه تحاشت التضحية بالمعلم فى سبيل فردية الطالب وشخصية المتعلم التى غالبا ما تصاحب النظام الانجليزى المعروف بنظام العريف ، كل هذه الأشياء مضافا إليها التعليم المختلط للجنسين الذى يؤمن بمزاياه الكثير منا ، هذه الاعتبارات كلها هى أحسن وجوه حياتنا المدرسية ونستطيع أن نشتق منها أفضل البشائر بالقياس الى مستقبلنا .

فاذا كان لدينا مثل هذا التنظيم الرائع البارع فكل ما نحتاج إليه هو أن نلقحه بالعباقرة ونملؤه ونزوده بالرجال والنساء ذوى المواهب العظيمة والقدرات الماهرة الذين يعملون أكثر وأكثر فيه ، وله ، وبه ، ومن أجله ، ولن يمضى جيل أو جيلان إلا وتمسك أمريكا بزمام القيادة التربوية فى العالم كله .

إنه لزام على أن أقول إننى أتوقع ذلك اليوم — فى شىء غير قليل من الثقة — الذى تصبح فيه تلك القيادة حقيقة مؤكدة مكتملة .

ولعل أكثر من أفادوا من هذا الاختمار والمخاض اللذين أثرت اليهما فى دوائر التربية هم نحن علماء النفس .

فان الرغبة التى تحدو معلمى المدارس فى الوصول الى اعداد مهنى أكثر اكتمالا ، وأملهم فى الارتقاء الى ذلك المنسوب المهنى والروح الرفيع فى عملهم قد حفزتهم أكثر فأكثر على الاستعانة بنا نحن علماء النفس والتعاون معنا لكى ننير لهم السبيل بالمبادىء الأساسية . وأنا على يقين من أنكم فى تلك السويعات القليلة التى تقضيها معا تتوقعون منى أن أزودكم بالمعرفة الخاصة بوظائف العقل وعملياته التى تيسر لكم العمل على نحو أكثر جدوى ونفعا فى الفصول الدراسية العديدة التى تتولون أمرها .

وأنا أبعد الناس عن بخس علم النفس قدرته فى تحقيق تلك الآمال .

إذ يجدر بذلك العلم ويتعين عليه حقا أن يمد يد المساعدة الجوهرية للمعلم .

بيد أننى أعترف ، وأنا عالم بمدى ما تتوقعونه وتأملونه ، أن بعض القلق ينتابنى من جراء ما قد يصيب بعضكم على الأقل من خيبة أمل اذا ما وجدوا فى ختام محاضراتى البسيطة أن صافى الربح أقل مما قدروا ، وأضأل مما تصوروا ، وأصغر مما التمسوا .

وبعبارة أخرى فانى لست متأكدا تماما من أنكم ربما تكونون مغرقين فى الخيال والشطط بالقياس الى ما تتوقعونه من محاضراتى .

وينبغى ألا يكون ذلك مثار دهشة أو مفاجأة تأخذنا على غرة ؛ فلقد صاحب علم النفس فى بلادنا عجيج وزئير وهدير . فمعامل علم النفس أنشئت

وكراسى الأستاذية فيه صفت ورصت ، ومجلاته تأسست ، وامتلأ الجو بالشائعات الذى نشرت الضباب فى أرجائه . أما محررو الصحف التربوية ، ومنظمو المؤتمرات والاجتماعات ، فقد اصطنعوا الأساليب التى تضفى عليهم صفة الابتكار ، وأحاطوا أنفسهم بهالات التجديد لكيلا يقلوا شأنا عن غيرهم من المجددين ، والمحدثين فى زماننا .

وبعض الأساتذة لم يتقاعسوا عن التعاون ، ولست متأكدا تماما من أنه حتى الناشرين لم يستجيبوا كليا لتلك الدواعى وآثروا التبلد والركود . لهذا أصبح « علم النفس الحديث » مفهوما دالا على اصطناع الشعوذة بأفكار مشئومة تنذر بالسوء والشر ، وكنتم أنتم جمهور المعلمين الوادعين المتقبلين التواقين للأخذ بالجديد ضحية الخوض فى هذا الخضم المضبب بالكلام الغامض عن الغلم الذى يحير ويخاتل بدلا من أن ينير ويضىء . والذى يجعل الأمور ملتغزة الى حد بعيد ، بدلا من أن يكشف عنها النقاب ويميط اللثام .

لذلك يبدو لنا كما لو كان المعلمون اليوم قد حملوا إصرا كالطلسم ، وكأنه القدر المقدور الذى لا فكاك منه ! ان قضية مهنتهم المتماسكة تماسكا كافيا فى ذاتها ، والملتحمة التحاما تاما فى مقوماتها ، قد سامتها المجلات ، ولاكتها المعاهد ، حتى أصبحت نقاطها الرئيسية واطاراتها مهددة بالانمياع والضياع فى خضم من البلبلة والنسيج المهلهل الذى لا يتماسك لوهيه .

وعندما يكون الدارسون مفتقرين الى الاستقلال الفكرى والقدرة على النقد والتمحيص (وأعتقد أنكم أيها المعلمون اذا كان فيكم عيب كمعلمين لفرق المرحلة الأولى — ولو كان هذا العيب فى أخف درجاته وأقل كمياته — فهو أنكم على شىء غير يسير من الخنوع والطاعة) ، دعونى أؤكد لكم

أننا لا نجد الدقة ولا الاتزان ولا سلامة التقدير فى أولئك الذين يحصلون على « رخصة » تخول لهم أن تملى عليهم القوانين إملاء من أعلى !

لذلك يلزمنى الآن بالقياس إلى موضوع علم النفس — وأنا ما زلت على أولى عتباته قبل أن ألج بكم أبوابه — أن أفعل ما فى وسعى لأبدد هذه المعميات والأحاجى والطلاسم .

لذلك دعونى أقل من فورى إنه فى رأيى المتواضع لا يوجد شىء يسمى « علم النفس الجديد » جدير بهذه التسمية .

لا يوجد سوى علم النفس القديم الذى بدأ فى زمان لوك مضافا إليه قليل من فسيولوجية المخ والحواس ونظرية التطور مع قليل من التفاصيل الاستبطانية المشذبة دون تطبيقات يفيد منها المعلم فى معظم حالاتها .

إن المفاهيم الأساسية لعلم النفس هى وحدها ذات القيمة الحقيقية للمعلم وهى — اذا نحينا جانبا نظرية التطور التى سبقت الاشارة اليها — أكثر المفاهيم بعدا عن الجدة أو الطرافة أو الحداثة .

وأعتقد أن ما أعنيه بذلك سيبدو لكم أكثر وضوحا وجلاء فى ختام محاضراتى هذه . وبالاضافة الى ذلك أحب أن أقول إنكم ترتكبون خطئا كبيرا — إذا ظننتم أن علم النفس باعتباره علم القوانين العقلية — شىء يمكنكم أن تستنتجوا منه برامج محددة ومشروعات وطرائق وأساليب للتعليم لكى تستخدموها بطريقة مباشرة فى الفصول الدراسية . هذا باطل الأباطيل وقبض الريح .

فعلم النفس علم ، والتعليم فن ، ولكن العلوم لا تولد فنونا منها أبدا من تلقاء نفسها بطريقة مباشرة ؛ اذ لابد من توافر وسيط قوامه عقل خلاق ليقوم بعملية التطبيق عن طريق ابتكاره هو .

ان علم المنطق لم يجعل الانسان يفكر تفكيرا صحيحا ، وعلم الأخلاق (اذا كان ثمة علم بهذا الاسم) لم يجعل الانسان يسلك سلوكا مستقيما .

إن أقصى ما تستطيعه هذه العلوم هى أن تعيننا على أن نمسك بزمام أنفسنا وتبين أنفسنا اذا بدأنا فى أن نفكر ، أو فى أن نسلك سلوكا خاطئا ، ثم ننتقد أنفسنا بشكل أكثر دقة بعد أن نكون قد ارتكبنا الخطأ .

ان العلم يضع الخطوط فقط التى يتعين على قواعد الفن أن تقع فى نطاقها ، وهى قواعد أو قوانين لا ينبغى لمتبع الفن أن يتخطاها أو يتعدى حدودها . ولكن أداء الفنان الخاص أو اجراءه المميز له الذى يصطنعه ايجابيا فى نطاق تلك الحدود والخطوط — وقف على عبقرية الفنان وحده ولا شريك له فيه .

فقد تتفنن عبقرية معينة فى أداء عمل ما بطريقة خاصة ، وقد ينجح فنان آخر فى أداء نفس العمل بطريقة مغايرة — بيد أن كلا منهما لا يتخطى الحدود ولا يتجاوز الخطوط .

ان فن التعليم انبثق ونما وتطـور فى قاعة الدرس ، انبثق من روح الابتكار ونما من قدرة الخلق وتطور من الملاحظة الملموسة المشوبة بالتعاطف والود والفهم البصـير .

وحتى عندما يكون الفنان عالما نفسيا فى الوقت نفسه (كما هو الحال عند هربارت) فان فن التعليم وعلم النفس سارا جنبا الى جنب ولم يشتق الأول من الثانى على أى نحو — لقد كان الاثنان متطابقين متوافقين متلازمين متناسبين ، ولكن لم يخضع واحد منهما للآخر . وهكذا نجد فى كل مكان أن التعليم ينبغى أن يتفق مع علم النفس ويتناغم معه ولكنه لا يتحتم أن يكون نوع التعليم الوحيد الذى يتفق مع علم النفس لأن هناك طرقا متعددة

مختلفة متنوعة للتعليم تتفق أيضا مع القوانين النفسية وتتناغم وتتناسب معهـا .

واذن فمعرفتنا بعلم النفس ليست ضمانا أكيدا مطلقا بأننا سنكون معلمين صالحين .

فاذا أردنا أن نكون كذلك ونرتقى الى هذا المنسوب ونصل الى تلك النتيجة فينبغى أن نكون مزودين بموهبة اضافية قوامها الكياسة والابتكار والقدرة الخلاقة التى تعيننا على أن نحدد ما نقول وما نفعل عندما نعلم المتعلم .

هذه المهارة ، أو الفطنة ، أو الحذق فى ملاقاة الطالب ومتابعته . وهذه الكياسة فى علاج الموقف المحسوس الملموس على الرغم من كونها ألف وباء فن المعلم ، إلا أن علم النفس لا يستطيع أن يساعدنا فى أمرها أقل مساعدة .

إن علم النفس وأى علم آخر من علوم التربية التى ترتكز عليه تشبه فى الحقيقة علم الحرب . فلا يوجد شىء أكثر بساطة ولا تحديدا من مبادىء الاثنين .

ففى الحرب كل ما يلزم عليك عمله هو أن تضع عدوك فى موقف تجعل الموانع الطبيعية تحول بينه وبين النجاة منه اذا ما حاول ذلك . ثم توقعه فى مأزق تتفوق عليه فيه فى العدد ، فى الوقت الذى تستدرجه فيه الى خديعة يتصور بمقتضاها أنه بعيد عن قبضتك ، وهكذا بالحد الأدنى من تعريض قواتك للخطر تنقض على قوته وتدمرها تدميرا وتأخذ ما بقى منها أسرى .

وهكذا الأمر بالقياس الى التعليم ينبغى أن تثير الاهتمام والشغف فى تلميذك بكل بساطة وسهولة بحيث يتوق الى ما تريد أن تعلمه إياه فيركز

مجهوده فيه ويسحب اهتمامه من كل ما عداه ثم تقدمه له بطريقة سائغة مقبولة شائقة مؤثرة تستقر فى ذهنه ، ويتذكرها بمناسبتها الى يوم مماته . ثم تتبع ذلك بأن تشيع فيه حب الاستطلاع النهم الذى يثيره لمعرفة الخطوات التالية المتعلقة بموضوع درسه والمرتبطة بركيزة اهتمامه وشغفه .

فاذا كان هذا هكذا ، وكانت هذه المبادىء على هذا النحو من الوضوح فلن يكون هناك شيء سوى الانتصارات لأساتذة العلم ، سواء فى ميدان الحرب أو فى قاعة الدرس ، اذا لم يلجأ كل فريق منهما الى أن يجعلوا تطبيقاتهم فى تشكيل عقل خصومهم تشكيلا كميا لا سبيل الى حصره .

ذلك أن عقل عدوك — التلميذ — يعمل بعيدا عنك بنفس الحدة والتحمس والاهتمام التى يعمل بها قائد المعسكر الآخر بعيدا عن القائد العلمى .

فتماما مثلما هو الشأن فيما يفكر فيه ويريده العدوان المتنازعان ، وما يعلمان وما يجهلان بحيث يتعين على كل فريق أن يدركه ويلم به ويعدله ، فكذلك الأمر بالقياس الى المعلم والقائد الحربى يتعين على كل منهما أن يعرف ما يعرف الطرف الآخر ، وما يريد أن يعرفه ، لكى يكون الانتصار حاسما .

هنا يكون التكهن والإدراك ونفاذ البصيرة — لا الحذلقة العلمية ولا الخطط النظرية المرسومة — هى العوامل الوحيدة المؤازرة المساعفة المعينة على كسب الموقعة . ولكن اذا كان استعمال واستخدام المبادىء النفسية على هذا النحو سلبيا لا ايجابيا ، فليس معنى ذلك أنها مجردة من النفع أو خالية من الفائدة على الرغم من ذلك .

إنها بالتأكيد توفر الوقت والجهد ، وتلم شعث المحاولات والتجارب ، فلا يتبدل المجهود فى محاولات ثبت فسادها وبطلانها من قبل .

فحين نعلم مقدما — اذا كنا من علماء النفس — أن هناك طرقا خاطئة ، عندئذ ينقذنا علمنا النفسى من الوقوع فى تلك الأخطاء ، ثم إن ذلك يجعلنا أكثر استيضاحا لما نحن بصدد أدائه .

وبالاضافة الى ذلك فاننا نشعر بثقة وطمأنينة حيال أية طريقة نستخدمها بمجرد أن يثبت أنها ترتكز على نظرية تساندها وتدعمها بالاجراءات العملية فى الواقع التجريبى .

والأهم من ذلك كله أنه مما يلقح شعورنا بالاستقلال ، ويحيى اهتمامنا ويبعث شغفنا متجددا ، أن نرى موضوعنا من زاويتين مختلفتين ، ومن وجهة نظر نستطيع أن نتبين الزاويتين المختلفتين بوضوح فى آن ، فنتمكن من أن نرى الكائن الفتى كجهاز حى (الذى هو عدونا مثلا) وفى الوقت نفسه تتصرف حياله بكل ما لدينا من كياسة وبصيرة لكى نستطيع فى الوقت نفسه أن تتمثل فى داخلنا ونستحضر فى أخلادنا العناصر الداخلية العجيبة لأداته العقلية وآلته الفكرية .

مثل هذه المعرفة الكاملة بالتلميذ — التى هى فى الوقت نفسه راجعة الى البداهة والتحليل — هى بالتأكيد نوع المعرفة التى ينبغى أن يهدف إليها كل معلم .

ومن حسن حظكم أنتم المعلمون أن عناصر هذه الآلة الفكرية يمكن فهمها بوضوح ، كما أن طرائق أدائها ميسورة الادراك .

وحيث إن أكثر المبادىء والعناصر وطرائق الأداء تعميما هى بالضبط تلك الأجزاء من علم النفس التى يجدها المعلم ذات نفع مباشر ، فيترتب على ذلك أن الكمية اللازمة من ذلك العلم لجميع المعلمين لا يتحتم أن تكون كمية هائلة فقليل من علم النفس يصلح التعليم .

أما أولئك الذين يجدون أنفسهم وقد هاموا حبا بهذا العلم ، فليغوصوا فيه ما شاء الله لهم الغوص ، وليمضوا فيه إلى آخر أشواطه ، ولن يضيرهم ذلك كمعلمين ، بمعنى أنهم لن يكونوا أسوأ مما هم عليه بسبب ذلك ، على الرغم من أننا نتبين فى بعضهم شيئا قليلا من فقدان الاتزان بسبب الجنوح الذى نلاحظه فينا جميعا عندما نشتط ونبالغ فى أهمية بعض أجزاء الموضوع الذى ندرسه،ونركز كل همنا فيه لكى ندرسه دراسة واسعة شاسعة مجردة .

إن الفكرة العامة البسيطة عن هذا العلم كافية وافية للغالبية العظمى منكم بشرط أن تكون فكرة عامة صحيحة . ويمكننى أن أقول ان تلك الفكرة العامة من البساطة والوضوح والايجاز بحيث يستطيع كل منا أن يكتبها فى راحة يده إذا جاز لنا أن نفعل ذلك .

أما آخر ما تحتاجون إليه كمجرد معلمين فهو أن تظنوا أنه من المحتم عليكم كجزء من واجبكم أن تصبحوا مسهمين من أصحاب الحول والطول فى العلم السيكولوجى أو أن تقوموا بالملاحظات السيكولوجية بطريقة منهجية رسمية .

إننى أخشى أن يكون بعض المتحمسين لدراسة الطفل قد أثقلوا كاهلهم بأن وضعوا عليكم بعض العبء بهذه الطريقة وعلى هذا النحو .

فلتمض دراسة الطفولة قدما ما شاء لها أن تمضى بكل الوسائل ، فهى دراسة منعشة لكل مفاهيمنا لحياة الطفل .

إن هناك فريقا من المعلمين يجدون لذة تلقائية فى ملء المقررات الدراسية وقيد الملاحظات وتجميع الاحصائيات وتبويبها ثم حساب النسبة المئوية . وسوف تفضى دراسة الطفل بكل تأكيد إلى إخصاب حياتهم وتسميدها .

واذا كانت النتائج الاحصائية لتلك الدراسة تبدو على وجه الاجمال ذات قيمة ضئيلة نحيلة فان المقتطفات والأقوال المأخوذة من واقع حياة الأطفال والواردة على ألسنتهم ، وكذلك الملاحظات التى تسجل إبان مناشطهم المختلفة والتى تعتبر جزءا حيويا من تلك الدراسة — تعيننا بالتأكيد على أن تتعرف الى طلابنا معرفة وثيقة كما يتعرف الخليل الى خليله ؛ لأن عيوننا وآذاننا تصبح أسرع فى التقاط تلك العمليات والسبل التى تطالعنا فى الطفل الذى أمامنا ، لمشابهتها لتلك التى قرأنا عنها كما وردت وسجلت فى مقتطفات وأقوال الأطفال الآخرين ، والتى لولاها لأفلتت من ملاحظاتنا فنغفل أمرها أو نظل جاهلين بها .

ولكن بالله عليكم — دعوا الكثرة الكاثرة من المعلمين يمرون عليها مر الكرام اذا فضلوا ذلك ، وأن يشعروا بأنهم أحرار فى عدم إسهامهم فى الاضافة الى المزيد منها أو فى تكبير حجم ركامها . ولنطو كشحا ذلك الادعاء الذى يتجلى فى المواعظ المتجشأة التى تجعل منها واجبا حتمى الأداء فى صورة أوامر يجدها فى منتهى السخف والملل أولئك الذين لا يجدون فى أنفسهم ميلا مناسبا لها أو استعدادا مهنيا حيالها .

ولا أستطيع أن أتفق بشدة مع زميلى الأستاذ مونستربرج Munsterberg عندما يقول ان موقف المعلم من الطفل لكونه موقفا محددا محسوسا وأخلاقيا يناهض تماما موقف الملاحظ النفسى لكونه موقفا تجريديا وتحليليا .

فعلى الرغم من أن بعضنا قد يقرن الاتجاهين بنجاح فانهما لابد وأن يصطدما فى مداراتهما عند معظمنا .

أما أسوأ ما يمكن أن يحدث لمعلمة جيدة صالحة فهو أن تصاب بضمير سيىء حيال مهنتها ؛ لأنها تشعر بأن لا أمل يرجى منها كعالمة نفسية . إن المعلمين مبهوظون بأثقال المهنة ومرهقون بالعمل الشاق بما فيه الكفاية وأكثر .

وكل من يضيف ولو جزئيا الى ذلك العبء أو مهمة اضافية فانما يحمل عليهم اصرا ، ويرهقهم من أمرهم عسرا . ولذلك فهو عدو للتربية .

فالضمير الشاعر بالاثم يزيد من ثقل كل الأعباء الأخرى ، ومع ذلك فأنا أعرف أن دراسة الطفولة وغيرها من نواحى علم النفس أيضا قد أنتجت ضمائر مثقلة بالسوء فى صدور كثير من المربين الأبرياء المخلصين حقا . إنه لما يسعدنى حقا اذا كانت هذه الكلمة العابرة التى صدرت عنى تستطيع أن تبدد هذا الضمير السيىء إذا كان ما زال رابضا ومعششا فى نفوس أى منكم لأنه حصيلة وناتج هذه الطلاسم والأحاجى المنظمة التى شكوت منها من قبل .

إن أحسن المعلمين وأفضلهم قد يكون أفقر مسهم فى الاضافة الى مادة دراسة الطفل ، وأحسن المسهمين فى هذا الصدد قد يكون أسوأ المعلمين وأكثرهم إفلاسا فى المهنة .

ولا توجد حقيقة ملموسة أكثر وضوحا من هذه البديهية . فلنكتف بهذا القدر بالقياس الى ما نعتبره أعظم اتجاه عام معقول للمعلم حيال الموضوع الذى سيشغل بالنا ويحتل اهتمامنا .